الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ٤ —

وأما الرواية الثانية في سبب المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله فقد نقلها أبو الفرج الأصبهاني من كتاب محمد بن يحيى الخراز، قال حدثني أحمد بن ابراهيم الحاسب، قال حدثني عبد الرحمن بن داود بن أبي أمية البلخي، قال: كان حكيم بن عياش الأعور الكلبي ولعاً بهجاء مضر، فكانت شعراء مضر تجيبه وتجيبهم، وكان الكميت يقول هو والله أشعر منكم. قالوا فأجب الرجل، قال إن خالد بن عبد الله القسري محسن إلي فلا أقدر أن أرد عليه. قالوا فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء؛ وأنشدوه ذلك، فحمى الكميت لعشيرته فقال الذهبة:

« ألا حُيِّيتِ عنّا يا مَدِينا »

فأحسن فيها، وبلغ خالداً خبرها، فقال لا أبالي ما لم يجر لعشيرتي ذكر، فأنشدوه قوله:

ومن عجبٍ على لَعَمْرُ أمِّ ... غَدَتْكَ وغير هانيًا يمينا
تجاوزتَ المياهَ بلا دليلٍ ... ولا علمٍ تَعَسَّفَ مخطئينا
فانك والتحوُّلَ من مَعَدٍّ ... كهيلةَ قبلنا والحالبينا
تخطتْ خيرهم حَسَباً ونَسْبًا ... إلى الوالي المغادر هاربينا
كمنزِ السُّوءِ تنطح عالفيها ... وترميها عِصيُّ الذابحينا

فبلغ ذلك خالداً فقال: قعلها! والله لأقتلنه. ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيرهن نهاية في حسن الوجوه والكمال والأدب، فرواهن الهاشميات، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعاً. فلما أنس بهن استنطقهن فرأى فصاحة وأدباً، فاستقرأهن القرآن فقرأن، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكن من قائل هذا الشعر؟ قلن: الكميت بن زيد الأسدي، قال: وفي أي بلد هو؟ قلن: في العراق ثم بالكوفة، فكتب إلى خالد: ابعث إلى برأس الكميت بن زيد. فبعث خالد إلى الكميت في الليل فأخذه وأودعه السجن. ولما كان من الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام واعتذر إليهم من قتله، وآذنهم في إنفاذ الأمر فيه في غد. فقال لأبان بن الوليد البجلي وكان صديقاً للكميت: أنظر ما ورد في صديقك، فقال عز علي والله ما به. ثم قام أبان فبعث إلى الكميت فأنذره فوجه إلى امرأته، ثم ذكر الخبر في خروجه ومقامها مكانه كما ذكر من تقدمه، وقال فيه: فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به، فقال: إني أخشى ألا ينفعك جواري عنده، ولكن استجر بابنه مسلمة بن هشام، فقال: كن أنت السفير بيني وبينه في ذلك. ففعل مسلمة وقال لابن أخيه: قد أتيتك بشرف الدهر، واعتقاد الصنيعة في مضر، وأخبره الخبر

فأجاره مسلمة بن هشام، وبلغ ذلك هشاماً فدعا به ثم قال: أتجير على أمير المؤمنين بغير أمره؟ فقال: كلا ولكني انتظرت سكون غضبه. قال: أحضر نيه الساعة، فانه لاجوار لك. فقال مسلمة للكميت: إن أمير المؤمنين أمرني بإحضارك. قال: أتسلمني يا أبا شاكر؟ قال: كلا ولكني أحتال لك. ثم قال له: إن معاوية ابن هشام مات قريباً، وقد جزع عليه جزعاً شديداً، فاذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق فاذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك، ويقولوا هذا استجار بقبر أبينا، ونحن أحق من أجاره

فأصبح هشام على عادته متطلعاً من قصره إلى القبر. فقال: من هذا؟ فقالوا: لعله مستجير بالقبر. فقال: يجار من كان إلا الكميت، فإنه لا جوار له، فقيل: فإنه الكميت، قال: يحضر أعنف إحضار، فلما دعي به ربط الصبيان ثيابهم بثيابه، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر وهم يقولون: يا أمير المؤمنين، استجار بقبر أبينا وقد مات، ومات حظه من الدنيا، فاجعله هبة له ولنا، ولا تفضحنا فيمن استجار به. فبكى هشام حتى انتحب، ثم أقبل على الكميت فقال له: يا كميت أنت القائل:

وإنْ لا تقولوا غيرها تتعرَّفوا ... نواصيها تردي بنا وهي شُزَبُ

فقال: لا والله ولا أنان من أتن الحجاز وحشية، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم قال: أما بعد — فإني كنت أتدهدى في غمرة، وأعوم في بحر غواية، أخبط على خطلها، واستفزني وهلها، فتحيرت في الضلالة، وتسكعت في الجهالة، مهرعاً عن

الحق ، جائراً عن القصد ، أقول الباطل ضلالاً ، وأفوه بالبهتان وبالاً ، وهذا مقام العائذ بمبعر الهدى ، ورافض العماية ، فاغسل عنى يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجريمة ، ثم قال :

كم قال قائلكم لعاً ... لك عند عثرته لعاثرْ
وغفرتُم للذوى الذنو ... ب من الأكابر والأصاغر
أبني أُمَيَّةَ إنكم ... أهلُ الوسائل والأواصر
يُتقى لكل مُلِمَّةٍ ... وعشيرتى دون المشاور
أنتم معادنُ للخلا ... فة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتتابعيـ ... ـنَ خلائفاً وبخير عاشر
وإلى القيامة لا تَزَا ... لُ لشافعٍ منكم وواتر

ثم قطع الإنشاد وعاد إلى خطبته فقال : إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته مناط المنتجعين بحبله ، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلاً عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين

فقال له : ويلك يا كميت ، من زين لك الغواية ، ودلاك فى العماية ؟

قال : الذى أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه العهد فلم يجد له عزما

فقال : إيه أنت القائل :

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها ... ويا حاطباً فى غير حبلك تحطبُ

فقال : بل أنا القائل :

إلى آل بيت أبى مالكٍ ... مُناخٌ هو الأرحب الأسهلُ
نَمَتْ بأرحامنا الدَّاخلا ... ت من حيث لا يُنكرُ المدخل
بِمُرَّةَ والنَّضر والمالكيـ ... ـن رهطٌ هم الأنبل الأنيل
وبارَى خزيمةَ بدرَ السما ... ءِ والشمسَ مفتاحُ ما تأمل
وجدنا قريشاً قريش البطا ... حِ على ما بنى الأوَّلُ الأوَّل
بهم صلح الناسُ بعد الفسا ... دِ وحيص من الفتق ما رَعبلُوا

قال له : وأنت القائل :

لا كعبد الملیك أو كوليدٍ ... أو سليمانَ بعدُ أو كهشامِ
من يمتْ لا يمتْ فقيداً ومن يحـ ... ـيَ فلا ذُو إلٍّ ولا ذو ذمام

ويلك يا كميت ، جعلتنا ممن لا يرقب فى مؤمن إلا ولا ذمة ،

فقال : بل أنا القائل يا أمير المؤمنين :

فالآن صرتُ إلى أُمَيَّـ ... ـةَ والأمور إلى المصايرْ
والآن صرت بها المصيـ ... ـب كمهتدٍ بالأمس حائر
يا ابن المقائل للعقا ... ئل والجحاجحة الأخايرِ
من عبد شمس والأكا ... بر من أُميةَ فالأكابر
إن الخلافة والإما ... رة برغم ذى حسد وواغر
دَلفا من الشرف التليـ ... ـد إليك بالرِّفدِ الموافر
فحللتَ مُعتلجَ البطا ... ح وحلَّ غيرك بالظواهر

قال له : فأنت القائل :

فقل لبني أمية حيث حلوا ... وإن خفتَ المهندَ والقطيعا
أجاعَ الله من أشبعتموهُ ... وأشبع من بجوركم أُجيعا
يمرِّضنَّ السياسة هاشميٌّ ... يكون حياً لأمته ربيعا

فقال : لا تثريب يا أمير المؤمنين إن أردت أن تمحو عنى قولى الكاذب ، قال بماذا ؟ قال بقولى الصادق :

أورثته الحَصانُ أمُّ هشام ... حسباً ثاقباً ووجهاً نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد ... ر فأمسى له رقيباً نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروا ... نُ سَنىَّ المكارم المأثورا
لم تجمهم له البطاح ولكن ... وجدتها له معاناً ودورا

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً وقال : هكذا فليكن الشعر يقولها لسالم بن عبد الله بن عمر وكان إلى جانبه ، ثم قال : قد رضيت عنك يا كميت . فقبل يده وقال : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تزيد فى تشريفي ؛ ولا تجعل لخالد على إمارة ، قال : قد فعلت وكتب له بذلك وأمر له بأربعين ألف درهم ، وثلاثين ثوباً هشامية وكتب إلى خالد أن يخلى سبيل امرأته ، ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً ، ففعل ذلك

وأما الرواية الثالثة فقد قال فيها أبو الفرج الأصبهانى : أخبرنى أحمد بن عبد الله بن عمار ، قال حدثنا النوفلى على بن محمد بن سليمان أبو الحسن ، قال حدثنى أبى قال : كان هشام بن عبد الملك قد اتهم خالد بن عبد الله ، وكان يقال له إنه يريد خلعك ، فوجد بباب هشام يوماً رقعة فيها شعر ، فدخل بها على هشام فقرئت عليه ، وهى :

تألَّق برقٌ عنـ ... ـدنا وتقابلت
أثافٍ لقِدْرِ الحرب أخشى اقتبالَهَا
فدونكَ قِدْرَ الحربِ وَهْىَ مُقرَّةٌ
لكفَّيك واجعل دون قِدْرٍ حِمَالَهَا
ولن تنتهى أو يبلغَ الأمرُ حدَّهُ
فتَصْلَيهَا رُسْل قبل ألاَّ تنالها

فَتَجْشَمَ منها ما تَجشمَتْ من التي
بسُوَرَاءَ هَرَّتْ نحوَ حالكَ حالها
تَلافَ أمورَ الناس قبل تفاقُم
بعُقْدَةِ حزمٍ لا تُخاف انحلالها
فما أبرم الأقوامُ يوماً لحيلة
من الأمر إلا قَلَّدُوكَ احتيالها
وقد تَخْبرُ الحربُ العوانُ بسرِّها
وإن لم تَبُحْ من لا يريد سؤالها

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة فجمعوا، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم، فقال: شعر من تشبه هذه الأبيات؟ فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت بن زيد الأسدي، فقال هشام: نعم هذا الكميت ينذرني بخالد بن عبد الله، ثم كتب إلى خالد بخبره وكتب إليه بالأبيات، وخالد يومئذ بواسط فكتب خالد إلى واليه بالكوفة يأمره بأخذ الكميت وحبسه، وقال لأصحابه: إنه بلغني أن هذا يمدح بني هاشم ويهجو بني أمية فأتوني من شعره هذا بشيء، فأتوه بقصيدته اللامية التي أولها:

ألا هل عَمٍ في رأيه متأمل ... وهل مدبر بعد الاساءة مقبل

فكتبها وأدرجها في كتاب إلى هشام يقول فيه: هذا شعر الكميت، فإن كان قد صدق في هذا، فقد صدق في ذاك

فلما قرئت على هشام اغتاظ، فلما قال:

فياساسة هاتوا لنا من جوابكم ... ففيكم لعمري ذو أفانين مقول

اشتد غيظه، فكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه ويضرب عنقه، ويهدم داره ويصلبه على ترابها. فلما قرأ خالد الكتاب كره أن يستفسد عشيرته، وأعلن الأمر رجاء أن يتخلص الكميت، فقال: لقد كتب إلى أمير المؤمنين، وإني لأكره أن استفسد عشيرته وسماه، فعرف عبد الرحمن بن عنبسة ابن سعيد ما أراد، فأخرج غلاماً له مولداً ظريفاً، فأعطاه بغلة له شقراء فارهة من بغال الخليفة، وقال: إن أنت وردت الكوفة فأنذرت الكميت لعله أن يتخلص من الحبس فأنت حر لوجه الله والبغلة لك، ولك على بعد ذلك إكرامك والاحسان إليك فركب البغلة وسار بقية يومه وليلته من واسط إلى الكوفة فصبحها، فدخل الحبس متنكراً، فخبر الكميت بالقصة، فأرسل إلى امرأته وهي ابنة عمه يأمرها أن تجيئه ومعها ثياب من لباسها وخفان ففعلت، فقال: ألبسيني لبسة النساء ففعلت، فخرج فر بالسجان فظن أنه المرأة فلم يعرض له، فنجا وأنشأ يقول:

خرجتُ خروجَ القِدْحِ قِدْحِ ابنِ مُقبلٍ
على الرَّغم من تلك النوابح والمُسْلِ
عليَّ ثيابُ النسوانياتِ وتحتها
عزيمةُ أمرٍ أشبهتْ سَلَّةَ النَّصْلِ

وورد كتاب خالد على والي الكوفة يأمره فيه بما كتب به إليه هشام، فأرسل إلى الكميت ليؤتى به من الحبس فينفذ فيه أمر خالد، فدنا من باب البيت فكلمتهم المرأة وخبرتهم أنها في البيت وأن الكميت قد خرج، فكتب بذلك إلى خالد، فأجابه: حرة كريمة فدت ابن عمها بنفسها، وأمر بتخليتها، فبلغ الخبر الأعور الكلبي بالشام، فقال قصيدته التي يرمي فيها امرأة الكميت بأهل الحبس ويقول:

« أسْوِدِينَا واحْمِرِينَا »

فهاج الكميت ذلك حتى قال:

« ألاَ حُيِّيتِ عنَّا يامدينَا »

وهي ثلثمائة بيت لم يترك فيها حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم وتوارى وطلب فمضى إلى الشام فقال شعره الذي يقول فيه:

« قِفْ بالديار وقوفَ زائرْ »

ويقول:

يامَسْلَمُ ابن أبي الوليـد لَيَيتِ إن شئتَ ناشِرْ
اليوم صرتُ إلى أُمَيَّـة والأمور إلى المصائر

فأذن له ليلاً، فسأله أن يجيره على هشام، فقال: إني قد أجرت على أمير المؤمنين فأخفر جواري، وقبيح برجل مثلي أن يخفر في كل يوم، ولكني أدلك فاستجر بمسلمة بن هشام وبأمه أم الحكم بنت يحيى بن الحكم، فإن أمير المؤمنين قد رشحه لولاية العهد، فقال الكميت: بئس الرأي، أضيع دمي بين صبي وامرأة، فهل غير هذا؟ قال: نعم، مات معاوية بن أمير المؤمنين وكان يحبه، وقد جعل أمير المؤمنين على نفسه أن يزور قبره في كل أسبوع يوماً — وسمى يوماً بعينه — وهو يزوره في ذلك اليوم، فامض فاضرب بناءك عند قبره واستجر به، فإني